المحاضرة الثامنة

خصائص أدب الرحلة

خصائص أدب الرحلة:

يحتوي على مجموعةٍ من القصص والأحداث التي تساهمُ في نقلِ صورٍ تاريخيّة للقراء. يصفُ طبيعة، ومراحل الرحلة التي شارك بها الرحالة. يهتمُ بتسجيل المعلومات الجغرافيّة حول المناطق الجديدة. ينقلُ وصفاً عن العادات السائدة عند سكان المناطق التي وصلها الرحالة. يعتمدُ على نقل التاريخ بصورةٍ واقعية، أي يسردُ قصصاً حول شخصياتٍ حقيقية.

ولعل أهم خصائصه ما يأتي:

– حضور الأسلوب القصصي وعناصر القصة من شخصيات ومكان وزمان إلى جانب الاعتماد على الحوار.

– الاعتماد على الوصف بشكل كبير لإيضاح تفاصيل الأماكن التي يتم زيارتها.

–خلط الجدّ بالهزل وشيوع عنصر الفكاهة في النصوص الأدبية للرحلات وهو بذلك يعبر عن شخصية صاحبه في أحيان كثيرة، وأدب الرحلة نوع من السيرة الذاتية لما يورد فيها الرحالة معلومات مختلفة عن حياته. فالرحلة تتأثر بشخصية كاتبها الذي لم يكن همه فقط إيراد الحقائق بل التأثير في قارئها أيضا، فظهرت شخصيات الرحالة، وطبيعة أمزجتهم، ونفسياتهم من خلال ما سجلوه. الرحالة يقدم جانبا من سيرته ذاتية وذلك من خلال سرد كل ما يتعلق به في رحلته كما يقدم بعض الأحيان أخبار نادرة عن الأدباء والكتاب. والرحالة يلجأ بعض الأحيان إلى طابع السخرية والفكاهة، وقد يصبح هذا الأسلوب الخفيف المرح الساخر علاجا للحزن والألم النفسي.

– تضمين الشعر وبعض آيات القرآن الكريم في نصوص الرحلات ليتمّ من خلالها التأكيد على ما يصفه الكاتب، فكثيرا ما يلجأ الرحالة إلى الاستشهاد بأبيات شعرية تبرز أدبيته، سواء كانت من نظم الرحالة نفسه وهذا يثبت قدرته الشعرية والنثرية معا، وأحيانا أخرى يستعين بأبيات غيره مما يؤكد سعة إطلاعه ودقة معلوماته. وقد كان بعض الرحالة شعراء فدفعهم ذلك لقوله في المواقف المختلفة أثناء رحلتهم، ولاسيما عند فراقهم لموطنهم، وتوديعهم للأهل والأصحاب، وعند ملاقاة العلماء أو الحنين للوطن وربوعه، أو عند الإقتراب من مكة المكرمة أو المدينة المنورة. يقول فؤاد قنديل: الرحلات مصدر فريد لكثير من النصوص الأدبية شعرا كانت أم نثرا لإنفرادها برواية الكثير من النصوص، فالرحالة حرصوا على أن تضم رحلاتهم النوارد، فأدرجوا فيها كثيرا من قصائدهم الشعرية ورسائلهم النثرية مما له ارتباط بظروف الرحلة، وهذا الأمر جعل الرحلات ذات أهمية أدبية خاصة، فأكثر الرحالة لم تعرف لهم أشعار أو كتابات إلا من خلال ما دونوه في رحلاتهم، لذا عدت بمثابة دواوين لأصحابها، ومجموعات ضمت ألوانا من إنتاج عصرهم وأدبائه." الرحالة يستعين بالشعر ليعبر عما يختلج في نفسه من مشاعر حركتها مشاهداته وملاحظاته، ومن هؤلاء الرحالة الأديب البارع ابن جبير الأندلسي الذي نقل أبيات كثيرة في رحلته فمثلا تحدث عن خطبة صدر الدين رئيس الشافعية الأصبهاني ونقل في رحلته شعره التالي وهو يشير الروضة:

هاتيك روضة تفوح نسيما صلوا عليه وسلموا تسليما

ومن الأبيات المنقولة في رحلة ابن بطوطة – بعدما يذكر محاسن تونس أن فيها توجد الفواكهة وفيها المياه والأقوات غير متعذرة – ما يلي:

الغرب أحسن أرض ولي دليل عليه

لبدر يرقب منه والشمس تسعى إليه

النزعة القصصية في أدب الرحلة:

الرحلة في حد ذاتها قصة إن لم تتوافر فيها خصائص القصة، فهي تشاركها في بعض خواصها. فإن أدب الرحلة فن يقترب من فن القصة،"الرحلة عادة تحفل بالمقومات الأسس للقصة من فكرة رئيسية، وبناء، وحبكة، وبيئة زمانية ومكانية، وشخصيات، وبطل للقصة، علاوة على اللغة والأسلوب. فالفكرة موجودة، ومجريات الرحلة هي بناءها وحبكتها، والبيئة الزمانية ومكانية محددة، والشخصيات أدت دورها واقعيا، وبطلها الرحالة نفسه، ونأتي إليه اللغة والأسلوب الذي كان يصل في بعض الأحيان إلى درجة الإبداع المستند إلى الواقع، وكثير من الخيال في الموضوعات التي يطلق فيها الرحالة العنان لخياله."

ومن أبرز ما يميز أدب الرحلات هو تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره، ولكن أبرزه أسلوب الكتابة القصصي، المعتمد على السرد المشوق بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى، مما حدا شوقي ضيف إلى اعتبار أدب الرحلة بأنه "خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها الأدب العربي، تهمة قصوره في فن القصة، ومن غير شك من يتهمونه هذه التهمة لم يقرءوا ما تقدمه كتب الرحلات من قصص عن زنوج إفريقية وعرائس البحر وحجاج الهند وأكلة لحوم البشر وصناع الصين وسكان نهر الفولجا وعبدة النار والإنسان البدائي والراقي مما يصور الحقيقة حينا ويرتفع بنا إلى عالم خيالي حينا آخر"

ونرى أن كثيرا من أصحاب أدب الرحلات اهتموا بالحديث عن عادات الأمم والشعوب، وقصوا ماعندهم من أساطير وخرافات، واعتمدوا على المشاهدة والحكاية فغلب في رحلاتهم الطابع القصصي والروائي. فالرحلة تعتبر أختا شقيقة للرواية والقصة فنجد في قرائتها لذة ومتعة. فمثلا يقول ابن جبير عن مكثه في الإسكندرية بأسلوب قصصي جميل: "فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا، أن طلع أمناء إلى المركب، من قبل السلطان، بها لتقييد جميع ما جلب فيه. فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض (أي المال) ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل. وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة، لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم، فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل أحال

عليه حول أم لا. واستنزل احمد بن حسان منا ليُسأل عن أنياء المغرب وسلع المركب. وهكذا يحكي قصة دخوله مكة قائلا: ودخلنا مكة، حرسها الله، في الساعة الأولى من يوم الخميس الثالث عشر لربيع المذكور، وهو الرابع من شهر أغشت، على باب العمرة. وكان إسراؤنا تلك الليلة المذكورة، والبدر قدر قد ألقى على البسيطة شعاعه، والليل قد كشف عنا قناعه، والأصوات تصك الآذان بالتلبية من كل مكان، والألسنة تضج بالدعاء وتبتهل إلى الله بالرحباء، فتارة تشتد بالتلبية، وآونة تتضرع بالأدعية. فيالها ليلة كانت في الحسن بيضة العقد فهي عروس ليالي العمر وبكر بنيات الدهر. إلى أن وصلنا في الساعة المذكورة من اليوم المذكور، حرم الله العظيم ومبوا الخليل إبراهيم. فألفينا الكعبة الحرام عروساً مجلوة مزفوفة إلى جنة الرضوان ومحفوفة بوفود الرحمن، فطفنا طواف القدوم، ثم صلينا بالمقام الكريم وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم – وهو بين الحجر الأسود والباب، وهو موضع استجابة الدعوة – ودخلنا قبة زمزم وشرينا من مائها وهو لما شرب له

وكذلك فعل ابن بطوطة الذي قال عنه د. حسين مؤنس: "رحلة ابن بطوطة معروفة متداولة بأيدي الناس، وهي قصة جميلة تقرأ في لذة واستمتاع، لأنها في صميمها مغامرة طويلة حافلة بالمعلومات الصادقة الدقيقة بالإضافة إلى ما فيها من الغرائب والطرف" فمن رحلة ابن بطوطة أقدم نصا يسرد فيه حكاية فتح باب الكعبة المشرفة ويصف الكعبة بداخلها، يقول: "ويفتح الباب الكريم في كل يوم جمعة بعد الصلاة، ويفتح في يوم مولد النبي عليه السلام ورسمهم في قتحة أن يضعوا كرسيا شبه المنبر، له درج وقوائم خشب، لها أربع بكرات يجري الكرسي عليها، ويلصقونه إلى جدار الكعبة الشريفة، فيكون درجة الأعلى متصلا بالعتبة الكريمة، ثم يصعد كبير الشيبيين وبيده المفتاح الكريم ومعه السدنة، فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى بالبرقع، خلال ما يفتح رئيسهم الباب، فإذا فتحه قبل العتبة الشريفة، ودخل البيت وحده وسد الباب...

إن أدب الرحلة لم يقترب من فن القصة فحسب، بل اشتمل على كثيرمن الفنون الأدبية.

المراجع:

- شعيب حليفي الرحلة في الأدب العربي
- فؤاد قنديل، الرحلة في التراث العربي
- شوقي ضيف. الرحلات
- مجد خضر، مفهوم أدب الرحلة،https://mawdoo3.com/